خمسون عامًا من العطاء

ماري نفاع [1]

الاحتفاء بالصديقة هيفاء البشير بتسميتها «ضيف العام» من قبل مؤسسة عبد الحميد شومان، المؤسسة الثقافية الاجتماعية المتميزة، هو تكريمٌ لشخصيَّةٍ وطنيَّةٍ جمعت الصفات النبيلة لأبناء وبنات شعبنا، وتركت بصماتٍ لا تمحى في العمل الاجتماعيّ المؤسسيّ يفخر بها كلّ أردنيٍّ وأردنية.

رافقتُ البشير خلال مسيرةٍ قاربت 50 عامًا من العمل التطوعيِّ، ورأيت بأُمِّ عيني كيف كانت تفكّر وتخطط وتُشرف على تنفيذ مبادراتٍ مجتمعية لفائدة الناس من رجالٍ ونساء، وكيف كانت تُحوّل مؤسساتٍ وليدةً إلى مؤسساتٍ مستدامةٍ تتحدث عنها الأجيال القادمة.

كانت البداية في مطلع السبعينيات، حين دعانا زوجي الراحل الدكتور نبيه الشوارب، بعدما تولّى منصب مدير مستشفى الأشرفية، الذي حمل اسم «مستشفى البشير» لاحقًا، بعد استشهاد الدكتور محمد البشير زوج السيدة هيفاء رحمه الله، لتشكيل فريقٍ مساندٍ من زوجات الأطباء للإشراف على النظافة بشكلٍ عام وإنشاء غرفة ألعابٍ للأطفال وكافتيريا للأطباء.

كانت الدعوة بمثابة الشرارة التي أطلقت الطاقات الكامنة عند عددٍ من زوجات الأطباء والصديقات، وبدأنا مَسيرةً من العمل المشترك مع مستشفى البشير ومستشفى الجامعة

(1) ناشطة تطوعيّة وأمينة سرّ جمعيّة الأَسِرّة البيضاء.

الأردنية، منذ أن كان اسمه مستشفى عمّان الكبير، لتقديم الخدمة العامة للمرضى والعاملين والزوار، التي ما تزال تُقدَّم حتى الآن.

وقد عرفنا، نحن الذين رافقنا السيدة هيفاء البشير، كيف يتميّز الإنسان الذي لديه رؤية مستقبلية، إذ كانت تتلمَّس احتياجات الناس وتبدأ تصميم المشاريع الاجتماعية ذات المردود الإنسانيّ، وعند التنفيذ كانت تصل الليل بالنهار وتُسخِّر أفراد أُسرتها وكلَّ أعضاء الجمعية وتبثُّ العزيمة فيهم للبدء بالمشروع الجديد.

ولعلَّ قصة إنشاء مشروع «دار المسنِّين» في الجويدة تعطينا الصورة الحقيقية للعمل والتفاني والاحترافية أثناء التخطيط والتنفيذ والاستمرارية التي ميَّزت عمل السيدة هيفاء التطوعي؛ فقد كانت تؤمن بحجم المسؤولية الاجتماعية وحجم العمل التأسيسي، وفي الوقت ذاته تعلم أنَّ أيَّ مشروع يحتاج إلى الرعاية اليومية للبقاء والاستدامة، والشيء ذاته يقال في تأسيس منتدى الرواد الكبار.

وهكذا خططت وأشرفت على تنفيذ صروحٍ تقف شامخةً للتدليل على مستوى العطاء الذي بذلته وما تزال عبر سنوات عملها التطوعي في القطاع الأهلي، مع رفيقاتٍ واكبْنَ مسيرتها المفعمة بالعطاء والتفاني.

ولعلِّي لا أبوحُ بسرٍّ حين أقول إنَّ السيدة هيفاء كانت تجوب القرى الأردنية بصحبة أعضاء هذا الفريق، وتزور الأُسَر والمدارس التي لديها فتيات متفوقات في الدراسة قبل التخرج، وتعمل على إقناعها من أجل الالتحاق بعلم التمريض، حين كان الأردن يفتقد الإقبال على هذا النوع من الدراسة. وهي ذاتها التحقت، بعد أن كبر أطفالها، بكلية التمريض بالجامعة الأردنية وحصلت على شهادة التمريض بتفوق!

وإلى جانب المنهجية والرؤية المستقبلية، كان لدى السيدة هيفاء صفات شخصية قلَّ نظيرها، فقد كانت تحترم من تعمل معهم وتحفزهم للإبداع بعملهم وتذلل المشاكل التي تعترض طريقهم. كانت تعمل كلَّ ذلك بهدوءٍ دون ضجيج، وتحتضن رفيقاتها في الهيئة

الإدارية وتعزّز علاقتها مع أُسرهن، ولا تبخل بوقتها للوقوف إلى جانبهن إذا ما احتجن إلى ذلك؛ فقد تميَّزت بالإخلاص لعملها والإخلاص أيضًا لصديقاتها، كما تميّزت بالجرأة في قضايا احتياجات الجمعية أمام المسؤولين لتبيِّن قيمة العمل التطوعي الأهلي إلى جانب العمل المؤسسيّ لتحقيق مسيرة التنمية المجتمعية.

وبالإضافة إلى ذلك، تمتعت البشير بحسٍّ وطنيٍّ عروبيٍّ، عبر المواقع التي كُلِّفت بها، مثل لجنة الميثاق الوطني والمجلس الوطني الاستشاري أو المشاركة بمبادراتٍ شعبية لنصرة شعب فلسطين، وكان أحدثها تخصيص خيمة لنشاطات تدعم «غزة رمز العزة» في حديقة منتدى الرواد الكبار.

وقد يتبادر إلى ذهن الكثيرين السؤال التالي: كيف تحوَّلت السيدة هيفاء لمثالٍ يحتذى به، وكيف يمكن أن تتحول إلى نموذجٍ يحتذى من قِبَل الأجيال القادمة؟!

ولا شك أنَّ تَحوُّل السيدة هيفاء البشير إلى «قوة ومثال» يستند إلى صفاتها القيادية ذات البعد الشمولي، فقد كنتُ قريبةً منها وأرى كيف تُصدر أحكامها، فلم ألمس، ولو لمرّةٍ واحدة، أنَّها تُصدر أحكامها على أساسٍ عنصريٍّ أو طائفيٍّ أو بالواسطة؛ فهي تؤمن بالتعددية وتشجِّع على اتخاذ القرار بالاستناد إلى القدرات الشخصية والكفاءة.

ولقد رافقتُها حين شاركنا في مؤتمر بكين قبل 25 عامًا، ولا أنسى صورتها وهي تعرض اللباس الشعبيَّ لنساء السلط وهي ابنة نابلس؛ فقد كانت دائمًا تتعمَّد التذكير بعمق العلاقات ما بين شعبنا من أجل إعلاء الحسِّ الوطني الأردني إلى جانب قضية فلسطين العادلة، وإذا ما أُتيح لأيٍّ منكم أو منكُنَّ الاطلاع على القصص التي تُوجِّهُها إلى أحفادها وأحفادنا، فسترون أنها تعمل على غرس روح التضامن بين الناس وروح التسامح والمحبة بين أفراد الشعب الواحد.

أمَّا عن بِناء الشَّراكات ووضع أسس العمل المشترك بين مؤسسات المجتمع المدنيِّ فقد تركت أثرًا كبيرًا؛ فإلى يومنا هذا، ورغم تعب جيل الستينيات والسبعنييات، ما زالت البشير

تروي التاريخ الشفوي لعمل النساء الأردنيات من ذلك الجيل، لتوثيق قصة عطاء النساء في جمعية الأَسِرّة البيضاء وجهود النساء اللواتي تركنَ أثرًا في مسيرة التنمية الاجتماعية في الأردن الذي أحبَّها وأحبَّتْه.